بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 49 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:12\04\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

قال تبارك وتعالى: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالأرض إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾.

بعد أن انتهينا من آية السؤال والجواب، عندما يسأل عن خالق السماوات والأرض فيعترفون بأنه الله تبارك وتعالى، جاءت هذه الآية الشريفة ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ من دون عطف كما نلاحظ أي: لم يقل (ولله ما في السماوات والأرض).

هنا ترك العطف في اللغة العربية وفي الأدب العربي قد يكون لأجل الانفصال بين الجملتين، بأن لا تكون للجملة الثانية أي ربط بالجملة الأولى، فحينئذ بناء على ذلك تكون هذه الآية الشريفة مطلعاً لمقطع جديد لا ربط له بالمقطع السابق.

ولكن ترك العطف لا ينحصر بالاستقلالية وعدم الارتباط، بل كما ذكر في علوم البلاغة يترك العطف لأجل كمال الاتصال بين الجملتين، وله موارد كثيرة في القرآن وفي غير القرآن، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْرا﴾ هذه كأنه لم يسمع وكأن في أذنيه وقراً يفيدان معنى واحد، فلأجل ذلك ترك بينهما العطف، مع أنه بينهما ارتباط كامل.

فالظاهر هنا أنه ما زال الحديث عن إثبات الخالقية والربوبية، ففي الآية السابقة سؤال وجواب الفطرة لكل البشر هو الاعتراف بالتوحيد في الخالقية، وللمشركين في العبادة هو اعتراف فعلي بالتوحيد بالخالقية؛ لأن المشرك في العبادة يعترف بوحدة الخالق.

وهذه الآية آية الخالقية وآية التوحيد في الخالقية إن تدبر بها أولو الأبصار تقودهم إلى التوحيد في الربوبية، من يطلع على عظيم خلقه وإبداعه وإنشائه يصل يقيناً إلى أنه هو المدبر لا غير، لكن جاءت هذه الآية الثانية لتوضح هذا الأمر بصورة أعمق وأوضح، فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾

يمكن في الخارج بل هو واقع أن تكون هناك طائفة أو فرقة أو عالم يوحد الباري تبارك وتعالى في الخالقية، هو الخالق لا غير، ولكن بعد أن خلق تنحى جانباً، فجاءت آلهة مدبرة كما يعتقده المنجمون، بأن العالم العلوي الذي من أبرز أمثلته النجوم -ولذا أطلق عليهم اسم المنجمون- هم الذين يدبرون هذا الكون، وأن الله سبحانه وتعالى كانت وظيفته فقط الخلق.

فجاءت هذه الآية الشريفة ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتقديم الجار والمجرور في المقام دال على الانحصار، أي: له لا لغيره، ونعرف أن أدوات الحصر أو ما يعبر عنه في البلاغة بأدوات القصر منها تقديم ما حقه التأخير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فرق كبير بين نعبدك وبين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نعبدك فقد نعبدك ونعبد غيرك، أما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا أنت.

فهذا الانحصار أن كل ما في هذا الكون، والذي أنتم تعتقدون به، وهو السماوات والأرض، كل ما هذا الكون هو ملك انحصاري للخالق الذي أثبتنا خالقيته في الآية السابقة. فإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن للمملوك أن يقوم بوظيفة المالك إلا بإذن منه، فإذا أوكل ملكاً من الملائكة بالمطر والريح وما شابه ذلك أو أوكل ولياً من الأولياء، نبياً من الأنبياء، وصياً من الأوصياء، فهذا عين التدبير أو هذا التدبير عينه، وليس شيئاً خارجاً عن التدبير، بتدبيره نظم هكذا؛ لأن كل هؤلاء هم مملوكون له ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه اللام هي لام الملكية، أي: لله ملك السماوات وما فيها والأرض ومن عليها وما فيها. فإذا كان الأمر كذلك، فلا بد حينئذ أن نقول بالتوحيد في الربوبية.

وهناك فرق بين استقلالية التدبير لأحد من الكائنات وبين بتوكيل التدبير إلى أحد من الكائنات، هناك فرق كالفرق بين السماء والأرض، استقلالية كائن من الكائنات في تدبيره مستقلاً عن الله وتعالى هذا شرك، شرك في الربوبية، ويتنافى مع كونه مالكاً لما في السماوات والأرض. أما توكيله وتفويضه هذا هو التدبير عينه.

من باب تقريب الموضوع: مرة واحد يبني مجمع، وبطريقة مقهورة نحي جانباً وهناك من قام بالامر في هذا المجمع، ومرة وجد أن المصلحة وعلمه بالنظام الأكمل الأصلح أنه حدد وظائف لملائكته في عالم التكوين فأمر عزرائيل أن يقبض الأرواح، وأمر ميكائيل أن ينفخ في الصور، وأمر جبرائيل

أن ينزل بالوحي، وأمر ملائكة لا حد لها ولا إحصاء بأعمال قد نتصورها وقد لا نتصورها، هذا هو عين التدبير، ولا يتنافى مع التوحيد في الربوبية.

إذن ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ترتبط ارتباطاً وتنسجم انسجاماً كاملاً مع الآية السابقة، ثم يختمها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أيضاً هنا ما قال لم يعطف بقوله (وإن الله) لكون هذه الجملة الثانية أيضاً تنسجم كمال الانسجام مع فكرة الجملة السابقة، لا أنه يريد أن يضيف مطلباً جديداً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: لا غيره، فالغنى له لا لغيره، وتمام الموجودات فقيرة إليه، من كان هذا شأنه لا يمكن لأي قدرة في الوجود أن تكون مدبرة تدبيراً قاهراً عليه، وإنما إن كانت مدبرة تكون تدبيراً مقهوراً له، تكون من باب التسخير، سخر ملائكته، فتكون مقهورة في تدبيرها لا قاهرة؛ لأنه هو الغني المطلق، وباقي الأشياء يحتاجون إليه.

﴿الْحَمِيدُ﴾ صيغة فعيل، وصيغة فعيل تستعمل في اللغة العربية بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، وهنا بمعنى مفعول، حميد أي محمود، أيضاً هو المحمود على نحو الانحصار، لو كان غيره مدبراً بنحو التدبير القاهر لا بد أن المحمودية عليه وعلى غيره، نحمده لكونه خالقاً، ونحمد غيره لكونه مدبراً، والحال تقول الآية فقط هو المحمود ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

بعد ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ما زلنا في المقطع ذاته، آيات التوحيد، آيات العقيدة التوحيدية، قبل قليل ذكرنا أن الله سبحانه هو المالك للسماوات والأرض، لكن هذا في حدود اطلاعكم، أما كلمات لا حد لها ولا إحصاء.

كان يمكن لهذه الآية أن تصاغ فكرتها بالصياغة التالية: أيها الناس الله سبحانه وتعالى يملك ما في السماوات وما في الأرض، وقال: انتبهوا ليس فقط هذه الأمور، بل يملك أيضاً أموراً قد لا تخطر على بالكم ولا يصل إليها علمكم. لكن هذه الجملة وهذا التعبير قد يمر على الذهن من دون أن يدخل في أعماقه، بخلاف هذا التعبير الموجود في الآية الشريفة.

التفصيلات التشبيهية تركز الفكرة في الذهن، كثرة التفصيل تجعل الإنسان يتذكر، كما في الخطبة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في استقبال شهر رمضان خلاصتها: أيها الناس أنتم في ضيافة الله، والله جهز لكم كل شيء تحتاجون إليه، ودفع عنكم الموانع، وانتهت. ولكن قد جاء بتفاصيل، أنفاسكم فيه تسبيح، هذا يثبت في الذهن ويؤثر في الذهن.

جاءت هذه الآية تقول: طبعكم أيها البشر إذا هناك شيء أردتم إحصاءه تسجلونه على الورق وتكتبونه، وهذا القلم الواحد الذي يؤخذ من أغصان الأشجار لتسجلوا أفكاركم وكلماتكم في الأوراق يكفيكم دواة واحدة، هذه تكتب ما شاء الله، هذا الذي نحن متعارف عندنا. فجاء إلى هذا الشيء المتعارف وقفز وضاعفه حتى يصل الذهن إلى قناعة أن الله سبحانه وتعالى لا حدود لكلماته، لو جئنا في هذه الأرض التي نعيش عليها إلى شجرة قطّعناها إلى أقلام، وبدل الدواة جعلنا البحر دواة وأمددنا هذا البحر بسبعة أبحر مشابهة له، وقلنا: تعالوا سجلوا كلمات الله لكانت النتيجة أن هذه المداد المتشكل من هذه الأبحر الموجودة والخيالية التي تضمها إليه، هذه تنفد وكلمات الله سبحانه وتعالى لا تنفد. هذه الفكرة التي اختصرناها في أول الجملة صارت متجذرة بالفعل.

قد يطالع أحدكم في بعض التفاسير، مثل العلامة الطبطبائي رحمه الله يعبر في هذه الآية أنها فيها إيجاز حذف، وإيجاز الحذف هو حذف بعض الكلمات لتختصر، مثل في سورة يوسف أن الملك رأى مناماً، فسأل من يستطيع أن يفسر هذا المنام؟ فقال: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ هناك جمل محذوفة حيث قال أنا آتيكم به، قال له الملك: من هو، قال: ذلك السجين الذي قصته مع امرأة العزيز كذا وكذا، قال: إذن اذهب بسرعة وآتي به فذهب وصل إلى السجن فقال لصاحب السجن: أريد أن أقابل يوسف، فقابل يوسف عليه السلام قال له: يا يوسف إلخ، هذا نسميه إيجاز حذف.

فالعلامة يقول في هذه الآية يوجد إيجاز حذف، مع أننا نتكلم في هذه الآية عن تفصيل، نعم مرة يكون إيجاز الحذف مشكك، على الرغم من أن فيها تفصيل لهذا الشيء الذي أجملناه لتقرير المطلب في الذهن، مع ذلك فيها إيجاز حذف.